المحاضرة الثامنة : دور البطل في التاريخ (كارليل)

مقدمة :

تعد فكرة البطل في التاريخ إحدى النظريات التي كانت مثار جدل بين فلاسفة التاريخ في العصور الحديثة، على الرغم من أن جذور هذه الفكرة تمتد إلى عصور سابقة، إذ كانت من القضايا التي أولها مفكرو اليونان والرومان بعض الاهتمام، ومهما يكن من أمر بشأن أصل هذه النظرية، فإن الخلاف يدور حول صنع الأحداث التاريخية، وهل الأولوية للأفراد (الأبطال)، أم للمجتمع الذي هو أرضية فعل البطل، وقاعدة انطلاقه في صنع وتغيير الأحداث التاريخية والحضارية، فضال عن تحديد مفهوم البطل وصفاته، والخصائص التي تميزه من غيره من الرجال العاديين الذين يحفل بهم التاريخ.

إن دراسة تاريخ أي أمة من الأمم يقدم لنا الكثير من الرجال العظام الذين أدوا أثرا بارزا فيه، لذلك فإن حاجة الأمة في الظروف الصعبة لقائد سياسي أو عسكري أو مصلح اجتماعي أو اقتصادي التي تساعد على ظهور الرجل المناسب الذي يقود شعبه، وحاجة المجتمع إلى التغيير هي التي تساعد في ظهور البطل، مع الأخذ بعين الاعتبار بعض الحالات التي لا يستطيع مجتمع ما صناعة بطل منقذ، بالرغم من حاجة ذلك الشعب له. ومن الجدير بالملاحظة أنه على الرغم من اختلاف الآراء حول تحديد دور أو مهمة البطل في المجتمع، فالبطل هو القائد أو المنقذ لشعبه في الأزمات والأوقات الصعبة التي يمر بها ذلك المجتمع، ويكون أثره في تغيير الواقع الذي يعيشه الشعب نحو الأفضل، ونقله من حالة التخلف أو الأزمة إلى حالة التقدم والأمان، أو تحسين وضعه نحو الأفضل وبناء على ذلك فمن الممكن أن يكون البطل قائدا سياسيا أو عسكريا أو مفكرا أو مصلحا اجتماعيا أو فيلسوفا أو أديبا، بل وحتى فنانا أو عالما، ألن البطل هو كل من أحدث تغييرا في مجتمعه، فالقائد العسكري الذي يحقق نصرا أو انقلابا في المجتمع هو بطل في نظر شعبه، والمفكر أو المصلح الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي الذي يحاول أن يغير وضع المجتمع وأسلوب معيشتته نحو الأفضل هو بطل في نظر تلك الأمة، وخير مثال على ذلك الرسل والأنبياء الذين نقلوا وضع المجتمع الذي هم فيه من حالة الاستبداد والوثنية والظلم إلى العدل والحرية وسيادة القانون الإلهي، هم في نظر مجتمعاتهم أبطال.

معنى البطل والبطولة

البطل مفهوم تؤمن به كل المجتمعات وكل الديانات، فهو الإنسان الشجاع الذي يخلص الشعوب من مظلوميتها، ولعل حاجة الإنسان الفطرية والخوف من الطبيعة فيما سبق دعت الحاجة لتقديس بعض الأشخاص والوصول بهم إلى درجة الألوهية، وهذا ما استغله أصحاب السلطة و بدأوا يضيفون بعض الطقوس للتعبير عن شجاعتهم المزيفة، فظهر لنا البطل متمثل بخليفة الله تعالى على الأرض أو نصف إله، ومع ظهور الديانات السماوية هنا بدأ الخلاف أيضاً حول خليفة الله تعالى على الأرض وبدأت فكرة البطل تظهر أو ظهور لها بالخليفة. وبدأ المفكرون والفلاسفة يصطنعون فكرة البطل مثل فكرة السوبر مان أو الإنسان الأرقى عند نيتشه(1844_1900)، وبدأ الروائيين بسرد مفهوم البطل في سردياتهم وأدبياتهم الكبرى، وبدأ صناع السينما الالتفات إلى هذه القضية وبدأوا يصنعون البطل صناعة سينمائية ويجردون البطل من كافة العيوب، ويجملونه ما أمكن تجميله.

إن انبهار الإنسان ببطل معين، هو أقرب إلى أن يكون تعبيراً عن تطلعاته، وهو يكون في الغالب من صناعة وتطلعات الإنسان الخيالية، فهو يكون شخص خرافي وغالباً ذو صفات خيالية واستثنائية ويتمتع بقوى وقدرات خاصة، وهو مقاتل لا يقهر ويتمتع بصفات وخصال نبيلة، وشجاعة ونادرة، ولعل ولع الإنسان بالبطولة وحبه للبطل، وربما حاجته الوجدانية جعلته يقوم بصياغة مفهوم البطل في أفلام الكارتون مثلاً (غراندإيزر) الفلم الكارتوني الشهير الذي يدافع عن الأرض ضد الهجمات التي تهدد كوكب الأرض. والواقع أن الشعوب مولعة بفكرة البطل، وفي كثير من الأحيان تصنع بطل هو ليس ببطل، و ربما يكون طاغية ودكتاتوري، ولا ينتمي للبطولة إطلاقاً.

لقد تبعثر مفهوم البطل، فبدأنا نسمع بطل سياسي وعسكري ورياضي ورجل دين والخ...، وذلك لأن مفهوم البطل هو مفهوم حسن وجيد، وعندما كنا صغار كان المعلم أو المعلمة تكتب لنا (أحسن يا بطل)، وفي إطار العائلة كثيراً ما نسمع كلمة (عفيف بالبطل) هذه الكلمة دلالتها حسنة، لكن من هو البطل؟ وقد عرف كثيراً هذا المفهوم ولعل ما يراد به هو الشخص المستعد لمواجهة الصعاب حتى حدود التضحية بالنفس من أجل مصالح مجتمعه، أو من أجل الدفاع عن قيمه ومعتقداته التي غالباً ما تكون منحازة إلى مصالح غالبية الناس من حوله، وهنا ينظر المجتمع له على أنه حاميه والمدافع القوي عنهم، وبعبارة أخرى هو منقذهم، وقد تعامل العرب منذ القدم مع البطولة باعتبارها واحدة من أسمى الصفات ونظروا إليها من أكثر من

زاوية، فالإعلاء من شأن البطولة هو إعلاء لشأن الفروسية والشجاعة والأقدام، وهي صفات ظلت مطلوبة في أوساط القبيلة العربية المهددة دائماً بالغزو والسلب، والبطل في نظر أبناء القبيلة ضرورة أساسية من ضرورات وجودها والدفاع عنها، ولم يتعاملوا مع البطولة بالتعميم، بل ذهبوا إلى إيجاد تعريف واضح للبطل المنشود، وتعريف للصفات للواجب توافرها فيه، وكان البطل في نظر القبيلة سيدها وفارسها وهو شخص كريم وذو مروءة وصاحب رأي سديد وقادر على اتخاذ الموقف المناسب، وأيضاً له قوة جسمية وقادر على القيادة وركوب الخيل واستعمال السلاح، لكي يكون قدوة لغيره من الفرسان، وقد بالغوا في تقديم تعريف للبطل بسبب حاجتهم للرمز الذي يدافع عنهم ويوفر لهم أسباب الحياة الكريمة، وكان سادة القبائل العربية وفرسانها يتسابقون للحصول على هذا اللقب أو الاقتراب منه.

مفهوم البطل عند توماس كارليل

توماس كارليل (1795_1881) فيلسوف وناقد ساخر ومؤرخ اسكتلندي، من مؤلفاته كتاب الأبطال والثورة الفرنسية وفلسفة الملابس وتاريخ فريديريك ملك بروسيا، وقد امتاز أسلوب كارليل ببلاغة وتمكنه من اللغة بشكل كبير. ويعد كتاب الأبطال من ابرز كتبه وهو كتاب يشرح كيف يؤثر البطل في سير التاريخ وتقديس العظماء، وقد خص فصلاً كاملاً عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويمتاز كتاب الأبطال بأسلوب أدبي وأختار كارليل أرقى النماذج الإنسانية، فتناول في الفصل الأول البطل في صورة إله وأختار شخصية أودين وهو شخصية أسطورية وكبير الآلهة في الميثولوجيا القديمة، أما الفصل الثاني البطل في صورة نبي، أختار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أما الفصل الثالث البطل في صورة شاعر، وأختار دانتي هو شاعر إيطالي (1265_1321) من أعماله الكوميديا الإلهية، وأيضاً شكسبير وهو شاعر وكاتب مسرحي وممثل إنجليزي (1564-1616)، من أعماله هاملت وروميو وجولييت. وفي الفصل الرابع البطل في صورة راهباً، وأختار مارتن لوثر راهب ألماني (1483_1546) وهو زعيم الإصلاح الديني، وأيضاً جون نوكس مصلى ديني اسكتلندي (1514_1572). والفصل الخامس تناول فيها البطل كاتباً وأديباً، وأختار صمويل جونسون (1709_1784) وهو كاتب إنجليزي قدم العديد من الأعمال الأدبية الراسخة في الأدب الإنجليزي، وأيضاً جان جاك روسو (1712_1778) كاتب وأديب وفيلسوف، ويعد من أهم كتاب عصر التنوير، وأيضاً روبرت برنز (1759-1796) شاعر اسكتلندي مؤلف

العديد من القصائد باللغة الإنجليزية، ولهجة الأراضي المنخفضة، من ألقابه الشاعر الفلاح، وفي الفصل السادس البطل ملكاً وحاكماً في شخص كرومويل (1599_1658) قائد عسكري وسياسي إنجليزي، وفي شخص نابليون (1769_1821) وهو قائد عسكري وسياسي فرنسي قاد العديد من حملات الغزو.¹

إن الدين هو أهم ما لدى الشعوب، وهو في نفس الوقت أخطر وجوه البحث وأكبر أركانه، وقد اعتقد البشر في الماضي أنه كل شعب أو مدينة يرسل الله تعالى لهم بشر يمثله ويحمل صورته، وهذا الرجل يكون أفضلهم ويقومون بعبادته وهي عبادة بمثابة الله تعالى ولا يستطيعون أن يخالفوه، لأن بمخالفته تكون مخالفة لله، ولذلك نشاهد أن أغلب الحضارات في التاريخ كانت تمثل بقيادة شخص يدعي أنه خليفة الله في الأرض. وأن البطل كان وما زال معبوداً في كل زمان ومكان، وأن عبادة الأبطال هي مثل الصخرة الراسخة، وهي الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور. ويعلق كارليل على الوثنية ويقول: « مما لا يكاد يصدق به العقل أو يتصوره الوهم أن أناس عقلاء يعبدون شخص مثلهم أو يعبدون الأحجار، ويصوغون لأنفسهم خليفة مشوشاً، أما والله ما أحسب كل هذا إلا حديث خرافة، والوثنية أعطت لنا صورة أبطال وهميين، واعتقد أن الشعراء هم منشأ الوثنية، إذ كانوا يعطون آراءهم في الكون، ثم يخرجون تلك الآراء والإحساسات في رموز الأفاصيص وضروب من المجاز والتشبيه».²

1- البطل هو الرجل العظيم والذي يكون في حياته ومماته ينبوع ونور يتدفق، وهو نور يضيء كل ظلمات الحياة، وينبوع الحكمة ومعنى الرجولة والشرف الكبير، ويعتقد كارليل أن البطل هو من يسير التاريخ وملهم المجتمعات، ولا ينظر هنا كارليل للطغاة والقتلة على أنهم أبطال، بل البطل عنده هو الذي يسعى لتطويع المجتمع، وهو الرجل العظيم وهو مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات، والله هو من علمه الحكمة فوجب أن نصغي إليه قبل كل شيء، والبطل قيمة

1- توماس كارليل: الأبطال، ترجمة: محمد السباعي، دار الكاتب العربي، بيروت، صص 17_18_19_28.

2- توماس كارليل: الأبطال، مصدر سابق، ص 60.

أخلاقية ومعنوية ومثل أعلى كما أنه مصدر زهو المجتمع.³ ويعتقد كارليل أن هناك ثلاث عناصر في البطل وهي :

أولاً : الإيمان بأن البطل قد أختاره الله تعالى.

ثانياً : الإيمان بالجبرية التي يعبر عنها البطل برسالته، فلقد كان كرومويل يعتبر نفسه أداة في يد العناية الإلهية، وكان لينين يرى في نفسه أداة تسيرها المادية الجدلية.
ثالثاً : أن يتحلى البطل بالشجاعة.⁴

يعتقد كارليل أن التاريخ هو تاريخ العظماء، من الأئمة ورجال الدين، فهم الأسوة الحسنة والقدوة، وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا، وكل ما بلغه العالم، وكل ما تراه قائماً في هذا الوجود هو نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله تعالى، وأرسلهم إلى الناس، فالتاريخ هنا هو تاريخ هؤلاء الفحول من الرسل، والأبطال هم من يؤثرون في الشعوب، ويرفعون المجتمعات من الحضيض إلى القمة، فهم روح التاريخ العالمي كله، والبطل هو طليعة كل تغيير تاريخي، وأن التاريخ لا يمكن أن يتقدم في غيابهم وأن المجتمع لا يمكن أن يتطلع إلى المستقبل ولا يمكن أن يحقق أهدافه بدون الأبطال الذين يرسمون له الطريق، ويقودونه نحو الهدف المنشود، فالتاريخ بهذا المعنى يصبح ذلك التجاوب بين البطل والمجتمع، لأن البطل بما أوتي من ملكات وقدرات يفجر القوى الكامنة في المجتمع، ويحرر آمالهم وتطلعاتهم، فيضفي المجتمع بدوره على البطل هالة من التقديس والعرفان.⁵ بعد أن كان البطل في صورة إله، وبعده في صورة نبي. جاء الزمن كما يرى كارليل أن يكون البطل أقل عظمة من السابق، وأصبح البطل بصورة شاعر وقسيس وكاتب وملك، وهنا البطل له أكثر من صورة، ولا يختص بصورة واحدة، لكن النتيجة المطلوبة من البطل هو أن يكون مصدر نور وإشعاع يضيء الدرب لكل الشعوب.⁶ ويمكن أن نلاحظ هنا ملاحظتين:

3 - المصدر نفسه، ص 60.

4 - احمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ص 64.

5 - توماس كارليل: الأبطال، مصدر سابق، ص 15.

6 - المصدر نفسه، ص ص 93 - 131.

1- لم يقصر كارليل مفهوم البطولة على السياسة، بل وسع من المفهوم و أطلقها مثلاً على الكاتب والشاعر.

2 - لم يمجّد القادة السياسيين تمجيداً مطلقاً، بل كان على وعي بالفرقة بين البطولة الحقّة والبطولة المزيفة.

نقد نظرية كارليل

اعتقد البعض أن أفكار كارليل لم تجد استجابة، وذلك للأسباب التالية:
أولاً : أن أسلوبه خطابي انفعالي، ولم تكن معالجته للموضوع علمية تحليلية.
ثانياً : يبالغ في أسلوبه الأدبي.

ثالثاً : يمجّد البطل ويوضح أن للبطل قدسية وهذا ما لا توافق عليه المسيحية.
رابعاً : جاءت أفكاره مناهضة للثورة الفرنسية التي آمنت بالديمقراطية، ومناهضة لسلطة الأبطال، بعدما عانوا من حكم الشخص الواحد. ومرجع ذلك للاعتبارات الآتية:
أ - خطورة أن يصبح مصير الأمم إبان الأوقات الحرجة في تاريخهم معلقاً على قرار يصدره فرد واحد وقد يخطأ أو يصيب.

ب - اقتران البطولة السياسية بالاستئثار بالسلطات، والعمل على أضعاف المؤسسات الديمقراطية، إن لم يكن القضاء عليها باعتبارها معوقة لقراراته.

ج - الزعامة أصبحت أشد خطراً، وذلك لأنها ممكن أن تنقلب إلى دكتاتورية.⁷
يرى كارليل أن الأمة العربية قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم، كانت أمة متخلفة جداً، ويوصف كارليل الرسول ما هو إلا صوت صادق، وشهاب أضاء العالم أجمع، وهو رجل صادق ونبي مرسل، ولم يقتبس النبي محمد صلى الله عليه وسلم نوره من أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يشبهه جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء، ونما هنالك بين الطبيعة وبين أفكاره، وكان رجلاً صادقاً وكثير الصمت، يسكت حيث لا موجب لكلامه، فإذا نطق كان في كلامه حكيماً وصادقاً ومخلصاً، وبقي طوال

7 - احمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص ص64_66_67.

حياته رجلاً راسخ المبدأ تقياً فاضلاً شديد الجد ومخلصاً، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، حميد العشرة وحلو الإيناس، وربما مازحاً ومداعباً، وكانت تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق، لأن من الناس تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله، هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم، جميل الوجه ومضيء الطلعة وحسن القامة، وكان لديه عرق كان ينتفخ ويسود في حاله غضبه، وكان هذا العرق خاصة بني هاشم، ولكنه كان أبين في محمد صلى الله عليه وسلم واطهر، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع ناري المزاج، ولكنه كان عادلاً وصادق النية، وأن الرسالة التي أداها كانت وما زالت السراج المنير.

إن كارليل كان له موقف إيجابي من الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد عد الرسول من أبرز الأبطال في التاريخ، وقد خصص له الفصل الثاني من كتابه الشهير الأبطال، واعتبره مثلاً للعلو والهمة، وجسد كل الفضائل الأخلاقية، وقد وصف كارليل بالعار كل من يعتقد أن الإسلام كذبة، ويدعوا إلى محاربة هذه الأفكار الضالة ويوصفها بأنها مخجلة وسخيفة جداً، ويعرج كارليل والإشادة بالإمام علي رضي الله عنه، فيرى أن سيرة الإمام علي ملهمة جداً بما فيها من بطولة وشجاعة وصولات كبيرة ومشرفة.⁸

⁸ - احمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ ، مرجع سابق، ص ص 60 - 61 - 65 - 67.